الحوافز والبواعث ، ويفاضل بينها . العقاد يقول إننا ظللنا وقتا طويلا نعجب بالعقبات ، وأدخلنا العقبات فى مفهوم الجمال ، فانهال علينا سواء الظن أو الخطأ أو الاستجابة غير السليمة . العقبات تُعبد أحيانا فإذا استولت على نفوسنا خيل إلينا أن الحقيقة على مبعدة . تلتقى المبالغة مع العقبة . والمبالغة نفسها صورة من صور العقبات . ولكن كلمة المبالغة لطول إلفها فقدت أو قللت من الشعور بالتجاوز . استعملنا الكلمة كثيرا فأصبح الشعور بالتجاوز هادئا أكثر هدوءا مما ينبغى . أما كلمة العقبات فكلمة حية فى مجتمع يبحث عن الحرية . ولذلك ينبهنا العقاد كثيرا أن كراهة العقبات تبدأ من تعاملنا مع اللغة . نحن نتعامل مع عقبات ، نجلها أكثر مما ينبغى ، وبعبارة أخرى نحن نقع أسرى الكذب دون أن نشعر . لا شىء يشى بالكذب من قريب . ولكن العقاد الحاد لا يفتأ يذكرنا بأننا على مقربة من ذلك .

اقرأ عبارة حرة لا تستوقف الحس ولا تعطل التفكير والخيال . عبارة تطلق النفس فى هوادة . عبارة تساق بطريقة يسلس معها الشعور بالسماحة والاسترسال . هذا منبت الحقيقة أو الصدق أو السماحة . والعقاد يعرف أن هذه الألفاظ جميعا تتداخل فيما بينها . يعلم العقاد أن الكاتب لا يستطيع أن يعبر عن جمال عبارة دون استعمال ألفاظ ذات طابع أخلاقى .

على هذا النحو كان العقاد يؤمن أن حب الحرية ينشأ فى أحضان استعمال اللغة . ولكن العقاد لا يمل من أن يردد ما يكتنف هذا الحب من عقبات .

ما هذه العقبات العالقة فى عقولنا ؟ حياتنا مرهقة من بعض النواحى ، أو كانت يوما ما مرهقة ، وتوارثنا هذا الرهق ، ولذلك أخذنا نميل جيلا بعد جيل إلى تمثيل ما يُعنت الحواس . ونحن نعلم أن الكتابة محاكاة وتخييل ، ولذلك يصبح هذا الإعنات ضربا من اللعب من ناحية وضربا من التوقير غير المباشر من ناحية ثانية .

ما أكثر ما نبه العقاد إلى أن استعمال اللغة يجب أن يحكم عليه فى ضوء التأثيرات العصبية ما لها وما عليها . هناك تأثيرات أقرب إلى الإعنات أو الإزعاج أو العقبات . وهناك تأثيرات أقرب إلى النشوة والطلاقة والارتياح . يطلب إلينا العقاد أن نصنف اللغة من هذه الناحية صنفين كبيرين . فى أحد الصنفين تخدم الألفاظ المعنى وتريك إياه ولا تريك نفسها ، وفى الصنف الثانى تستوقفك الألفاظ وتحجب عنك المعنى .